جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا
الرقم العام ....
رقم التصنيف ....

صور من سماحة الإسلام

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م

«يطلب من المؤلف». الرياض ص.ب

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
المكتبة
الرقم العام ٧٩٩٦
رقم التصنيف

الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن علي الربيعة
الأستاذ بكلية الشريعة بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية

صُوَرٌ من سماحة الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

وعد الله عز وجلّ بالنصرة لمن ينصره ، والعزة لمن أطاعه ، ووصف هذا الفريق بأنه ذو صلة قويّة بربّه الذي لا معبود سواه ، ونفع عظيم للناس ؛ يؤدي حق الله فيما رزقه من مال وعلم وجاه ، ويرعى مجتمعه ، فلا يفترّ عن الدعوة إلى ما فيه صلاحه ، ودرء المفاسد عنه : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(1) .

وهؤلاء الدعاة الهداة هم قبس من نور النبوة ، تظل بهم رسالة الحق واضحة المعالم ، مبلّغة إلى الناس ، ذائعة بينهم ، وهم يسلكون في أداء هذه الرسالة طرقاً شتى ، فمنهم من رزقه الله فصاحة اللسان وقوة الجنان ، ومنهم من أكرمه الله بفكر نافذ وبصيرة آسرة ، يصل بهما إلى بواطن الأمور ، ويكشف غوامضها ، ومنهم من منّ الله عليه بالفقه في دين الله ، ومكّن له من علم نافع ، وشرح به صدره ، وعمّ خيره على المختلفة إليه .

والأخ الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة ، ممّن صبر وصابر ، وآثر طريق التفقّه في العلم ، والتحقيق والتدقيق في مسائله ، وجمع الله له إلى ذلك حسن البيان فيما يعرضه ، والتهدي إلى أيسر الطرق التي توصله إلى قلوب الناس وعقولهم ، فأنت أمام داعية فقيه ، بصير بأحوال من يبثّ فيهم دعوته ، خبير بما يصلحهم ويصلح لهم .

---

(1) الحج : الآية ٤١ .

وكتابه هذا « صور من سماحة الإسلام » خير دليل على ما وصفته لك ، فإن صاحبه لم يلجأ فيه إلى العبارات المنمّقة . والخطب المطوّلة التي يصدق عليها قولهم : « أسمع جعجعة ولا أرى طحناً » ولم يعرض بعض المسائل الفقهية التي تنبىء عن سماحة الإسلام ، مقطعة الأواصر ، مفككة العقد ، ولم يستشهد ببعض الوقائع التاريخية التي لا يدرك القارىء غير المتخصص أصولها ودلالاتها ، وإنما تدرك وأنت تصحب هذا الكتاب أن صاحبه اختطّ خطة التزمها ، ورسم طريقاً سلكه ، فقد اجتمعت لديه من تدبّره في كتاب الله وسنّة رسوله ، وإنعامه النظر في كتب الفقه وأصوله ، وقراءاته في التاريخ الإسلامي حصيلة وافرة من الصور للسماحة الإسلامية ، فسلك ذلك كله في خمسة أبواب ، قدّم لها بمقدمة هادية تكشف الملامح الرئيسية لهذه الأبواب ، وتربط بينها .

فكان الباب الأول في الأمور العامة ، وقد وفّق الدكتور الربيعة في أن يذلّل لجمهرة القراء في هذا الباب مسائل من فنّ أصول الفقه ، ويدني قطافها منهم .

وكان الباب الثاني معرضاً لصور من سماحة الإسلام في العبادات .

والباب الثالث معرضاً لصور من سماحة الإسلام في المعاملات .

والباب الرابع معرضاً لصور من سماحة الإسلام في الأحوال الشخصية .

والباب الخامس معرضاً لصور من سماحة الإسلام في العقوبات .

ويدرك القارىء لكل باب من هذه الأبواب مدى الجهد الذي بذله صاحب الكتاب في وضع إطارٍ متكاملٍ له ، ورسم فلسفة عامّة يحتكم إليها في عرض الصور ، بحيث ينتهي القارىء من الكتاب وهو قاب قوسين أو أدنى من تصوّر عام للفقه الإسلامي ، وإدراك لكثير من مسائله .

وقد ربط الدكتور الربيعة بين الصور التي يعرضها لسماحة الإسلام بالرحاب الواسعة التي تتمثّل في اجتهادات الفقهاء ، والأحكام التي وردت لبعض منها

في الأديان السماوية السابقة على الإسلام ، والأحكام الموجودة لها في القوانين الوضعية ، بما يكشف كشفاً واضحاً عن سماحة الإسلام ويسره ، ونبّه إلى أن هذا اليسر ينأى عن اتباع الهوى ، فإتباع الهوى خطأ في السلوك ، وضلال عن سبيل الله .

ولا أزيدك حديثاً عن الكتاب وصاحبه ، فمن وجد المورد العذب النمير ارتوى .

القاهرة في :
١٢ من شعبان ١٣٩٨هـ
١٧ من يوليو ١٩٧٨م

د. عبد الفتاح محمد الحلو
معهد المخطوطات العربية

مقدمة

لقد كتب الله سبحانه أن يكون الإسلام هو الدين الخالد حتى يرث الأرض ومن عليها ، كما كتب أن يكون هو الدين الذي يجب على كل البشر أن يعتنقوه ، قال تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ[1] » وقال : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ منه »[2] .

كما أمر سبحانَه جماعة المسلمينَ بالدعوة له بالحسنى ، وأخذ الجزية ممن لم يقبل الدخول فيه ، لا قصداً للمال ذاته ، وإنما لتتهيأ القلوب لقبول الإسلام ، ولتشملهم أحكامه السمحة ، فإذا ما تذوقوها كان ذلك عاملاً قوياً في قبولهم له ، ودخولهم فيه .

وإن لم يكن ذلك كانت المرتبة الأخيرة وهي القتال حماية لدعوة الإسلام ، وإزاحة للعراقيل التي تعوق مسيرتها إلى قلوب البشرية .

ودين يحمل هذه الصفات لا بد أن يكون متسماً بأمور لا توجد في غيره ، حاملاً من عناصر البقاء وقرب التناول ما لم يحمله غيره .

وهكذا كان دين الإسلام ، فهو دين شرعه الله رحمة بالبشرية ورأفة بها كما ينطق بذلك القرآن الكريم في قوله « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »[3]

(١) آل عمران : الآية ١٩ .

(٢) آل عمران : الآية ٨٥ .

(٣) الأنبياء : الآية ١٠٧ .

وقوله « كِتابٌ أَنْزَلنَاهُ إليكَ لِتُخرجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ »[1] إلى غير ذلك من الآيات التي تنص صراحة على أن دين الإسلام هو دين الرحمة والرأفة ، وأنه الدين الذي يكون منه المنطلق من وحل الظلمات وأرجاس الوثنية إلى النور الوضيء الذي يكشف لمعتنقه كل ما يحتاج إليه في كل ناحية من نواحي دينه ودنياه .

وهو بما يحمله من هذه الصفات ، وما يرتكز عليه من تلك المقومات دين اليسر والسهولة والسماحة ، راعى الله فيه ما تقتضيه النفوس ، وما جبل عليه الخلق ، فجعل تكاليفه غير زائدة على قدرتهم ، بل إنه من أجل ما يحمله من عناصر البقاء والعموم لجميع البشرية ترك الآصار والأغلال التي ضربها على بني إسرائيل جزاء ظلمهم وعدوانهم ، قال الله في ذلك : « الَّذينَ يَتَّبعونَ الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجدونَه مَكْتوباً عِندَهُم في التَّوْرَاةِ وَالإنْجيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَينهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهم الطَّيِّبات وَيُحَرِّمُ عَلَيهم الخَبَائِثَ وَيَضعُ عنهم إِصْرَهُمْ والأَغْلالَ الَّتي كَانَتْ عليهم »[2] .

وذلك اليسر والسهولة في أحكامه واضح لكل من تتبع الشريعة في أصولها وفروعها . وقد زخر كتاب الله سبحانه ، وسنة رسوله ﷺ بالنصوص التي تدل لذلك وتؤيده قال تعالى : « وَمَا جَعلَ عليكُمْ في الدِّينِ من حَرجٍ مِلَّةَ أبيكم ابْراهِيمَ هُوَ سَمّاكُم الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وفي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عليكم وَتَكُونوا شُهَدَاء على النَّاسِ ، فَأَقِيموا الصّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ واعْتَصِمُوا بالله هُوَ مَوْلاكُمْ ، فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ »[3] . وقال : « مَا يريدُ اللهُ لِيجعَلَ عليكم في الدِّينِ من حَرجٍ وَلكنْ يُريدُ لِيطَهِّركُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ »[4] وقال في موضع آخر : « يُريدُ اللهُ بكم اليُسْرَ ولا يريدُ بِكم الْعُسْرَ »[5] ،

---

(١) ابراهيم : الآية ١ .
(٢) الأعراف : الآية ١٥٧ .
(٣) الحج : الآية ٧٨ .
(٤) المائدة : الآية ٦ .
(٥) البقرة : الآية ١٨٥ .

وقال أيضاً : « يُريدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عنكم وَخُلِقَ الانسانُ ضَعِيفاً »[1] .

فهذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ تنطق بنفي الحرج في مسائل الدين كلها ، وتدل بوضوح على أن الله أراد أن تكون مبنية على أساس من السعة والتيسير .

وإذا ما تصفحنا دواوين السنة المطهرة وجدنا أنها قد وافقت القرآن تماماً في ذلك والحث عليه ، ووجدناها تحمل وقائع كثيرة من أفعال النبي ﷺ أو تقريراته مما فيها يسر وسماحة ، فقد جاء عنه ﷺ أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة ليلها كنهارها » وأخرج الإمام أحمد أنه ﷺ قال : « إن خير دينكم أيسره » وأن الصحابة رضي الله عنهم سألوه عن أشياء تحرجوا منها فقال لهم : « إن دين الله في يسر » ـ ثلاثاً ـ .

وكان في ذروة وصاياه ـ ﷺ ـ لقواد الجند وأمراء الولايات أن يعملوا على أساس من اليسر ودفع الحرج ، وتجنب التشديد وكل ما كان من شأنه إعنات الناس والتشديد عليهم ، جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى الأشعري حينما بعثهما إلى اليمن : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا » .

وما لنا نذهب بعيداً ، وأمامنا ما يمثل ذلك أوضح تمثيل ، ويبينه أجمل بيان ، ذلك ما وقع للأعرابي الذي بال في المسجد بمحضر من الرسول ـ ﷺ ـ وجمْع من الصحابة فأراد الصحابة أن يزجروه ، وهموا أن يؤنبوه ، ويقطعوا عليه بوله ، احتراماً للمسجد ، وانطلاقاً من أن مثل ذلك لا يصلح أن يعمل فيه ، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك .

روى الجماعة ـ إلّا مسلماً ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قام أعرابي فبال في المسجد ، فقام إليه الناس ، ليقعوا به ، فقال النبي ﷺ : « دعوه ، وأريقوا على بوله سجلاً من ماء ، أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم

(١) النساء : الآية ٢٨ .

ميسرين ولم تبعثوا معسرين » .

فقد اعتبر هادي البشرية أن زجره وتعنيفه ـ وهو في هذه الحالة ـ داخل في التشديد والعسر اللذين لا يلائمان شريعة الإسلام ، وهو في الوقت نفسه يسلبها اليسر الذي طبعت عليه ، والسماحة التي اتسمت بها ، وكيف لا يكون ذلك من العسر ، وهو يجهل تحريم البول في المسجد ، زد على ذلك أنه ﷺ لو ترك الحاضرين ينفذون ما أرادوه تجاه ذلك الأعرابي لزادت الحالة سوءاً ، إذ إنه لو قام في أثناء البول ، لانتشر في المسجد إن لم يقطعه ، ولو قطعه لحصل عليه ضرر من ذلك ، بل من المحتمل جداً أنه لو تركهم ﷺ ينتهرونه لهرب منهم ، وهام على وجهه راجعاً إلى البادية ، وخرج من الإسلام ، فيكون ذلك سبباً في شقوته وعاملاً قوياً من عوامل خروجه من نور الإسلام إلى ظلمات الجهل والكفر والضلال .

وبعد أن انتهى الأعرابي من بوله ، دعاه ﷺ ، وكشف له عن حقيقة الأمر برفق ولين ، بطريقة ضمنت اجتنابه مثل هذه الفعلة ، مع الإبقاء على إسلامه .

روى مسلم أن الأعرابي لما فرغ من بوله دعاه النبي ﷺ . ثم قال : « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ، ولا القذر ، إنما هي لذكر الله عز وجل ، والصلاة ، وقراءة القرآن » .

وقد كان لمعاملة الرسول ﷺ للأعرابي باليسر والسماحة في هذه الواقعة الأثر الحسن في نفسه ، فقد حسن إسلامه ، وامتلأ قلبه حباً وإجلالاً لرسول الإسلام ، روى ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة : « فقال الأعرابي ـ بعد أن فقه في الإسلام فقام إلى النبي ﷺ ـ بأبي أنت وأمي ، فلم يؤنب ولم يسب » .

ولم يقتصر الإسلام في السماحة على العبادات والمعاملات المتعارف عليها

ـ كما قد يتبادر إلى فهم بعض الناس ـ بل شمل حاجة البشر بعضهم إلى بعض ، فوجه المسلمين إلى ذلك ، وحضهم عليه ، وأجزل لهم الثواب بفعله ، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة » .

وبعد :

فهذه لمحة موجزة عن يسر الإسلام ، وسماحته في تشريع الأحكام ، قصدنا أن تكون تقدمة لمباحث متعددة ، نستعرض فيها بعض القضايا التي برزت في أحكامها سماحة الإسلام ، ولن نحاول استقصاء ذلك في كل باب من أبواب الشريعة ، فذلك أمر لا يقع تحت الحصر ، بل سنكتفي بذكر بعض ذلك .

على إننا سنحاول أن نظهر كل قضية في النوع الذي يلائمها من أنواع اليسر الآتية :

أولاً : ما كان منها له في الإسلام حكمان ، أحدهما أخف من الآخر ، يعمل به في حالات معينة ، لظروف مختلفة ، وهو ما يسمى عند العلماء بالرخصة .

ثانياً : ما كان منها له في الأديان السماوية السابقة على الإسلام حكم ، ثم جاء الإسلام حاملاً له حكماً أخف من ذلك ، أو ما كان منها له حكم في أول الإسلام ، ثم جاء نص شرعي فرفعه ، وأقر حكماً آخر أخف منه ، وهذا ما يسمى بالنسخ .

ثالثاً : ما كان منها له في القوانين الوضعية حكم أشد من حكم الإسلام فيه .

هذا وأحب أن أوضح أن ما نريد إبرازه من يسر الإسلام فيما نبحثه من قضايا هو ما كان في حدود هدفه الأسمى ، وما شهدت له قواعده العامة ، ولسنا نريد ما يكون مطية لمتَّبعي الشهوات وأهل

الأهواء ، وذوي النفوس الضعيفة التي هيمن عليها الكسل ، وسيطر عليها الخمول ، فعميت بصائرها ، فلم تستطع تذوق حلاوة الإيمان ، ولذة العمل بشريعة الإسلام فتركت ذلك كله ، استجابة لهواها ، وطاعة للنفس الأمَّارة بالسوء .

والقاعدة المعروفة في الإسلام وهي « المشقة تجلب التيسير » إنما هي في حدود ما جاءت به الشريعة الإسلامية ، فليس لمشقة مخالفة الهوى مكان في يسر الإسلام ، لذا فهو لا يقابل تلك المشقة باليسر والتسامح ، بل يعتبر إتباع الهوى خطأً في السلوك ، وضلالاً عن سبيل الله ، قال تعالى : « يَا داودُ إِنَّا جعلناكَ خَليفةً في الأرضِ ، فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحقِّ ، وَلا تَتَّبعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سبيلِ اللهِ لهمْ عذابٌ شديدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ »[1] .

هذا وأسألَ الله أن يرزقنا فهم كتابه ، وتذوق أحكام شريعته ، إنه القادر على ذلك والمعين عليه .

وكتبه

د . عبد العزيز بن عبد الرحمن بن علي الربيعة

الرياض في ١٣٩٩/٥/٨هـ.

---

(١) سورة ص : الآية ٢٦ .

البَابُ الأوّل

صُورٌ من سَماحةِ الإسْلام
في أُمُورٍ عَامّة

وضع الشريعة لمصالح العباد :

الناظر في نصوص الشريعة الإسلامية ، والمتتبع لما وردت به من أحكام في جميع ما طرقته من مجالات الحياة يستطيع أن يثبت أنها وضعت لمصالح العباد وتحقيق الخير لهم ، ودفع الضرر والحرج عنهم في دينهم ودنياهم ، ففي بعثة الرسل يقول الله تعالى : « رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »(١) ويقول أيضاً : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »(٢) ، وفي تعليل أصل الخلقة يقول : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »(٣) .

ولقد اقترنت الأحكام التفصيلية في جميع جوانب التشريع بالعلل التي ترشد إلى ذلك وتؤكده ، في الصلاة يقول تعالى : « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ »(٤) وفي الصوم يقول : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(٥) وفي الحج يقول : « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ »(٦) وفي الجهاد يقول : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا »(٧) ويقول أيضاً : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ »(٨) وفي القصاص يقول : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ »(٩) .

(١) النساء : الآية ١٦٥ .
(٢) الأنبياء : الآية ١٠٧ .
(٣) هود : الآية ٧ .
(٤) العنكبوت : الآية ٤٥ .
(٥) البقرة : الآية ١٨٣ .
(٦) الحج : الآية ٢٨ .
(٧) الحج : الآية ٣٩ .
(٨) البقرة : الآية ١٩٠
(٩) البقرة : الآية ١٧٩ .

وفي جانب دفع الضرر والحرج يقول الرسول ﷺ : « لا ضرر ولا ضِرار » ويقول الله تعالى : « لِكَيْ لَا يكونَ عَلى المؤمنينَ حَرَجٌ في أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً » (١) .

إلَى غير ذَلك من النصوص الكثيرة الموجودة في جميع أبواب الشريعة ، والتي تدل على أن الله لم يضعها إلا لمصلحة البشر في دينهم ودنياهم وتحقيق الخير لهم ، ودفع الضرر والحرج عنهم في معاشهم ومعادهم .

وبناء على هذا الأصل قرر علماء الشريعة الإسلامية ارتكاب أخف الضررين لتفادي أكبرهما ، بمعنى أنه حينما يكون الإنسان مسوقاً إلى أحد ضررين ولا مفر له منهما معاً ، بل لا بد له من أن يقع في أحدهما فإنه والحالة هذه يشرع له سلوك سبيل الضرر الأخف ، ويباح له ارتكابه تفادياً للضرر الأكبر ، وتحقيقاً للمصلحة بقدر الإمكان .

والأمثلة لهذا المبدأ أكثر من أن تحصى ، وأوسع من أن تستوعب ، ولئن كان مما يزيده إيضاحاً ضرب المثال له ، فيكفينا أن نعلم أن الميتة حرام لا يجوز تناولها ، ولكن إذا اضطر أحد إلى تناولها وخشي على نفسه الموت بالاحجام عن أكلها فإنه يجوز له أن يتناول منها شيئاً لسد رمقه ، وإحياء نفسه ، وارتكاب ضرر الأكل منها دفعاً للضرر الأكبر وهو الهلاك بعدم الأكل .

والحقيقة إن هذه القاعدة فيها من معالم اليسر والسهولة ، ما هو كفيل بوصف الإسلام باليسر والسماحة والشمول في الأحكام لجميع ملابسات الحياة وظروفها .

وضوح نصوص الشريعة واليسر في فهمها :

الناظر في نصوص الشريعة الإسلامية يجدها تتسم بالجزالة في اللفظ ، والدقة في التعبير ، والوضوح في الفكرة ، واليسر في فهم المعنى . فلا تعقيد في ألفاظها ،

(١) الأحزاب : الآية ٢٧ .

ولا معميات في معانيها ، ولا إبهام فيما ترمي إليه من مقاصد .

ويرجع السبب في ذلك إلى أنها دين الفطرة الصحيحة ، تتقبلها الطباع السليمة ، وتنساب تعاليمها في النفس انسياب الماء في الجداول المنحدرة « فِطْرَةَ اللهِ التي فَطرَ النَّاسَ عليها ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ، ذلك الدِّينُ ٱلقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ »[1] .

وهناك سبب آخر يجعلها تنحو هذا المنحى ، وتسلك ذلك المنهج من الوضوح في المعنى ، والسهولة في الفهم ، ذلك أنها نزلت في أمة ليس لها قدم راسخة في علوم الفلسفة أو الكون أو الرياضة أو غيرها من فروع العلم والمعرفة ، فلو لم تسلك ذلك المنهج لم تكن نازلة على ما عهدوا ، فلا يتسنى لهم فهمها ، ولا تقوم الحجة عليهم بما فيها ، ولا ينطبق عليها وصف التعجيز لهم ما دامت جارية على غير معهودهم .

وقد نطقت النصوص بذلك المنهج ، وصرحت به في مواضع كثيرة في أبوابها المختلفة ، قال الله تعالى : « ولَقَدْ يَسَّرنا القُرْآنَ للذِّكرِ ، فَهلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »[2] . وروى الترمذي بسنده عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : « لقي رسول الله ﷺ جبريل ، فقال : يا جبريل : إني بعثت إلى أمة أميين ، منهم العجوز والشيخ الكبير ، والغلام والجارية ، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط » قال : يا محمد : « إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف » .

ولقد أدرك صناديد قريش إبّان مبعث رسول الله ﷺ هذه الحقيقة ووعوها ، فعرفوا ما في القرآن من حلاوة في الألفاظ ، ومن معان تهز أوتار النفس ، وتستجيش مشاعرها ، وما طبع عليه من تيسر فهمه ، وسهولة تخلله للقلوب .

---

(١) الروم : الآية ٣٠ .

(٢) القمر : الآية ١٧ .

ولم يخفوا هذه الحقيقة ، بل جرت على ألسنتهم حيث قالوا في شأن رسول الله ﷺ : « إنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجته » .

ولقد حاولوا صد الناس عن سماع القرآن ، وعن اللقاء برسول الإسلام ، والسماع منه ، فحذروا من في مكة ومن قدم من العرب إليها من أن يتصلوا بمحمد ﷺ ، أو يصغوا لكلامه ، وبذلوا الغالي والنفيس في القيام بهذه المهمة ، ولكنها الخطة الفاشلة ، والتدبير المهزوم ، حيث ضرب كثير من زعماء القوم بوصاياهم وتحذيراتهم عرض الحائط ، فسمعوا بعد أن كانوا مزمعين ألّا يسمعوا ، وفهموا بعد أن كانوا لا يريدون أن يفهموا ، وتشربت قلوبهم حب الإيمان بعد أن كانوا يرون فيه الشراب العلقم ، وانضموا في جيش الإسلام يذودون عن حياضه ، ويكابدون أعداءه ، ويدعون للدخول فيه ، والانضواء تحت لوائه بعد أن كانوا في جيش الكفر والضلال ينذرون أنفسهم للنيل من الإسلام ، وتحطيم أركانه ، وتقويض دولته وسحق معتنقيه .

ولئن كانت الوثائق التاريخية هي إحدى الدعائم الكبرى في تصديق ما ذكرناه فإننا نسوق منها ما يناسب المقام ، ويشهد للموقف ، ويؤكد تألب قوى الشر والطغيان ضد شريعة الاسلام ، ويوضح بالتالي مدى أصالتها ، ووقوفها كالطود الشامخ في وجه التيارات المعادية ، والأفكار المنحرفة ، كل ذلك لما تتصف به من سماحة ويسر ، ووضوح في الأهداف والمقاصد .

قال ابن اسحاق : « وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث : أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها ، فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلاً شريفاً ، شاعراً لبيباً ، فقالوا له : يا طفيل : إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ، ولا